

# الصحة العامة في موسم الحج من خلال رحلة بوركهارت

د. دعاء عبد الرحمن علي محمد مصطفى  
كلية الآداب والفنون – جامعة كائل

## ملخص البحث:

لا شك أن كتب الرحلات تمثل أهمية كبرى في مجال الدراسات التاريخية، باعتبارها مصدرا من مصادر البحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية وانطلاقاً من ذلك تسعى هذه الدراسة للاعتماد على رحلة بوركهارت للحجاز سنة ١٨١٤م/ ١٢٢٩هـ، حيث ورد في رحلته معلومات وإشارات متفرقة عن بعض الأمراض والأوبئة التي انتشرت بين الحجاج وأسبابها، والعديد من الممارسات التي من شأنها التأثير على الصحة العامة للحجيج. ومن خلال مطالعة هذه الرحلة يمكن الإجابة عن بعض التساؤلات ومنها: مدى الاهتمام بالأحوال الصحية للحجيج، ومدى توافر العوامل المساعدة على تفادي انتشار الأمراض التي قد تنتشر في موسم الحج، وكيف كانت الثقافة الصحية للحجيج، وأبرز العادات الغذائية لهم وأثرها على الصحة العامة لديهم، وهل عرفت ثقافة التطعيم ضد الأمراض لديهم؟، وأشهر طرق العلاج و التداوي المعروفة وقتها.

وقد تبين مدى تدهور الأحوال الصحية في موسم الحج في تلك الفترة، بدليل الحالة التي كان يصل عليها الحجيج إلى مكة، ذلك إذا قدر لهم الوصول، ولم يكن معظمهم ممن لقي حتفه أثناء الرحلة، وما ذلك إلا لتدهور الرعاية الصحية أثناء تلك الرحلة الطويلة، فضلا عن ممارسات الحجاج أثناء فترة الحج والتي كانت تفتقد إلى السلوك الصحي المتحضر، كما تبين عدم وجود ثقافة التطعيم، سواء في مكة أو في غيرها من المناطق التي يخرج منه ركبان الحج، مما قد يؤدي إلى انتشار العديد من الأمراض، والتي أثرت بشكل كبير على الحالة الصحية للحجاج، وأن العلاجات كانت تتركز على التداوي بماء زمزم، والموروث من الوصفات.

وعلى ذلك يمكن الخروج ببعض التوصيات، كضرورة تفعيل وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام المسموع والمرئي لزيادة التوعية الصحية، والتعريف بالسلوكيات الحضارية التي ينبغي على زوار بيت الله الحرام الالتزام بها، والتي هي في الأصل من فرائض ديننا الحنيف، وكذلك تسليط الأضواء على الدور الذي تقوم به السلطات القائمة على رعاية الأماكن الحجازية المقدسة حالياً، وما ينعم به الحجاج والمعتمرين من رعاية لا نعرف قيمتها إلا إذا قورنت بوضع كالذي كانت عليه في الفترة موضوع البحث.

## المقدمة:

الأحوال الصحية من الأمور التي كان لها ظهور كبير في كتابات الرحالة الأوربيين الذين زاروا الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وهو القرن الذي شهد اهتماماً أوربيا خاصاً بتلك المنطقة، افتقدته القرون السابقة عليه، وكان من أهم تلك الكتابات ما دونه بوركهارت - الرحالة السويسري في رحلته المنعوتة بـ "ترحال في الجزيرة العربية" حيث استطاع أثناء تلك الرحلة الدخول إلى الأماكن الحججية المقدسة، وأداء فريضة الحج، كحجاج مسلم يؤدي ركناً من أركان الإسلام الخمسة، وقد استطاع من خلال زيارته أن يقدم صورة شبة كاملة للأحوال الصحية أثناء فترة الحج في مكة، وما جاورها من أماكن إقامة الشعائر الدينية المتممة لفريضة الحج في منى ومزدلفة وعرفات، ولم تفتقر تلك الصورة إلى الثقافة الطبية التي تحلى بها، والتي اكتسبها من خلال دراسته للطب استعداداً لرحلته

إلى المشرق، مما أعطى تلك الصورة أهمية جعلتها سبباً في إقدامي على دراسة الصحة العامة في موسم الحج من خلال رحلته، وقد حاولت رصدها من بداية خروج ركب الحجيج و المسير في طريق الحج سواء أكان البري أم البحري منه، اعتماداً على ما ذكره بوركهارت في رحلته والذي اقتصرها على تلك التي تخرج من مصر و سوريا ومن اليمن قاصدة أرض الحجاز بما تحمله من أجناس مختلفة.

ثم تطرقت إلى الأحوال الصحية في أثناء موسم الحج بمكة وما جاورها من الأماكن المقدسة للوقوف على أهم ملامح تلك الأحوال من خلال ما أورده ذلك الرحالة من نصوص<sup>(١)</sup> فقد وفر بوركهارت للدارسين عن طريق كتاباته التفصيلية المستفيضة التي سجلها عن مناسك الحج وأيامه، كمأ من المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها، وكان اختيار موضوع (الصحة العامة في موسم الحج من خلال رحلة بوركهارت) قد تم لعدة أسباب: أولاً: قيمة كتب الرحالة والجغرافيين خاصة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة خلال القرن الثالث عشر الهجري/ ١٩م والتي لم تعد خافية على باحثي التاريخ. ثانياً: أنه من الرحالة الأوروبيين القلائل الذين أتاحت لهم فرصة حضور موسم الحج في مكة والتنقل بين المشاعر المقدسة بحرية فرصد الكثير من المعلومات التي يمكن أن يفيد منها الباحث<sup>(٢)</sup> ثالثاً: معرفة كيف يرانا الآخر، خاصة أثناء حدث له قيمته الدينية عند كل مسلم، وهي في نفس الوقت تعطي صورة عن مدى التزامنا كمسلمين بتعاليم ديننا الحنيف واحترامنا لها، مما قد يعطي انطبعا بالسلب أو الإيجاب عند الغربيين، وهي حقيقة لا بد من مواجهتها، فكثيراً ما يعطي المسلمون بأفعالهم انطباعات غير جيدة لدى الأجناس الأخرى وهو ما أشار إليه بوركهارت في بعض المواضع أثناء حديثه عن أفعال بعض المسلمين خلال موسم الحج<sup>(٣)</sup>. رابعاً: أن الكثير من تلك المعلومات التي وردت في الجوانب الحضارية، قد تم إغفالها من جانب المصادر المحلية في تلك الفترة والتي كانت تركز على الجوانب السياسية والحربية والأحداث الجسام فقط، أما الأمور الأخرى فهي لا تتعدى إشارات عابرة.

#### أهداف البحث:

يهدف البحث إلى توضيح الأحوال الصحية أثناء موسم الحج بمكة في القرن الثالث عشر الهجري/ ١٩م من خلال كتاب بوركهارت "ترحال في الجزيرة العربية" وبصفة خاصة الجزء الثاني منه والذي تناول الحديث عن موسم الحج والأماكن الحجبية في مكة، وذلك من خلال الوقوف على الحالة الصحية للحجاج بداية من الخروج في ركب الحج، و بيان العوامل المؤثرة فيها، ثم التطرق إلى سلوكيات الحجيج أنفسهم في موسم الحج ومدى انتشار الثقافة الصحية بينهم، وأهم الأمراض التي يكثر انتشارها في موسم الحج، ودور السلطات القائمة في مكة في تلك الفترة على توفير التوعية والرعاية الصحية ومدى انتشار ثقافة التطعيم، وأثر ذلك كله على نظرة غير العربي وغير المسلم لنا كمسلمين لتكون لنا عبرة ودرسا يستفاد به في نظرتنا المستقبلية، ثم بيان الفرق في الوضع الصحي بين ما كان، وما هو عليه الآن من رعاية ينعم بها حجاج بيت الله الحرام.

#### منهجية وطرق البحث:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي القائم على قراءة النصوص التاريخية وتحليلها واستنتاج المعلومات التي تخدم موضوع البحث، مع مقارنتها ببعض النصوص الأخرى المتزامنة معها أو السابقة و اللاحقة عليها.

وقد تم تناول الورقة البحثية من خلال المحاور التالية:

#### أولاً: التعريف بصاحب الرحلة.

يوهان لودفيغ بوركهارت (١٧٨٤ - ١٨١٧ م). رحالة مسلم سويسري، يعتبر من أدق وأشمل الذين كتبوا عن جزيرة العرب جاء إلى الشرق بعد اتفاهه مع الجمعية الإفريقية بلندن، على الذهاب للقيام باكتشافات ودراسات في منابع النيل في تمبكتو (بمالي) وبدأ يستعد للرحلة

(١) ولعل تناول الأوضاع الصحية في موسم الحج من خلال كتابات بوركهارت أمر يتسم بالصعوبة شيء ما عما إذا تناولناها مثلا من خلال كتابات رحالة مثل داوتي ذلك أن الأحوال الصحية في كتابات داوتي ظهرت بصورة أكثر وضوحاً، ولعل ذلك أن داوتي دخل الجزيرة العربية متمسحاً بمسوح الأطباء مستغلاً معرفته وثقافته الطبية لكي يتمكن من القيام برحلته دون مضايقات أو ليطمئن له سكان الجزيرة العربية ويستطيع الحصول على ما يريد من معلومات كما ذكر ذلك هو بنفسه. عبد العزيز الشبل: الأوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال كتابات الرحالة تشارلز داوتي، مجلة الدرعية، العدد ١٤٠٢٠٠، ص ١١.

(٢) في الحقيقة فقد سبقه إلى ذلك الرحالة دومينجو باديا والذي دخل الأراضي الإسلامية من جهة الغرب الإسلامي بعد عبوره من أسبانيا إلى المغرب العربي فطرابلس فمصر فأرض الحجاز حيث بدأ رحلته سنة ١٨٠٣م/ ١٢١٨هـ بعدما أظهر اعتناقه للإسلام وسمى نفسه على بابي العباسي ووصل مكة وقام بكل مناسك الحج بها. عبد العزيز: روايات غربية عن رحلات في الجزيرة العربية، ص ٣٦.

(٣) وإن كان بوركهارت كان موضوعياً في ذلك حين أشار إلى تعرض الأماكن المقدسة المسيحية لمثل تلك الممارسات، جون بوركهارت: ترحال في الجزيرة، ترجمة وتقديم صبري محمد حسن، مراجعة محمد صابر عرب، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٧، ج ٢، ص ٥٤.

بدراسة الطب والفلك والدين الإسلامي، بدأ رحلته بالسفر إلى جنوب سوريا عام ١٨١٢م / ١٢٢٧هـ وقضى بها بعض الوقت الذي يمكنه من إتقان اللغة العربية واكتساب بعض عادات البدو ومنها سافر إلى مصر، ولكنه لم يستطع السفر إلى منابع النيل، فقرر أداء فريضة الحج ولحق بركب الحجيج - حيث كان قد أعلن إسلامه سابقاً وأطلق على نفسه الشيخ إبراهيم بن عبد الله - الخارج منها إلى الأراضي الحجازية وتمكن من الوصول إلى جدة ومنها إلى مكة حيث أدى مناسك الحج في عام ١٨١٤م / ١٢٢٩هـ ودون خلال رحلته معلومات هامة عن الجزيرة العربية ووصف وصفا دقيقا الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وأورد معلومات غاية في الأهمية عن سكانها في كتابه المعنون بـ "ترحال في الجزيرة العربية" والذي تم ترجمته في جزئين، ثم قفل عائداً منها إلى القاهرة حيث توفي بها عام ١٨١٧م / ١٢٣٢هـ<sup>(٤)</sup>.

#### ثانياً: الصحة العامة للحجيج أثناء رحلة الحج.

إن المتتبع لحديث الرحالة بوركهارت من خلال كتابه ترحال في الجزيرة العربية يلاحظ أنه تناول الحديث عن أهم قوافل الحج التي تأتي من أنحاء العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري/١٩م ، وأهم الطرق المعهودة لتلك القوافل، سواء أكانت برية أم بحرية، فنجدته يتحدث عن بعض الصعوبات التي تواجه الحجيج، مثل اضطرابهم إلى ركوب أنواع من السفن غير المجهزة بالشكل اللائق، وبأعداد كبيرة وبصورة مزدحمة، علق عليها بأنها لا تمثل أي نوع من أنواع الراحة، مما يعطي انطباعاً بأن الأمر في تلك الحالة لم يتوقف على عدم توفر عنصر الراحة للحجاج، بقدر ما يتعلق ببعض الأمراض التي قد تصيبهم خاصة الأمراض المتعلقة بالجهاز التنفسي كتلانات البرد وغيرها، لعدم تجهيز تلك السفن بالشكل المطلوب وللسرعة انتشار تلك الأمراض بينهم بسبب الزحام الشديد والمكان المحدد المساحة والمتمثل فيما يستقلونه من سفن، قد يكونوا قد أرغموا على الانتقال بها طمعا في وسيلة نقل أكثر راحة وأكثر أماناً وأقل في المدة الزمنية من قوافل البر - التي لم تكن مخاطر السفر بها تخفى على أحد والتي كان من أهمها فضلا عن طول الرحلة والمعاناة الجسدية، التعرض للصوص وقطاع الطرق - البديل الوحيد لتلك السفن- والتي مثلت في حد ذاتها عيباً مادياً بالنسبة للحجاج خاصة بعد الرسوم والضرائب التي فرضت على الحجاج من قبل "محمد على باشا" والي مصر والتي سميت "بضريبة عقد المرور" حيث فرضت على السفن المارة من السويس إلى جدة، والتي بلغت عام ١٨١٤م / ١٢٢٩، ١٨ دولار على الرأس الواحدة<sup>(٥)</sup>.

ورغم ذلك فقد كان كثير من الحجاج يفضلون الذهاب لأداء مناسك الحج عن طريق قوافل الحج البحري، وهؤلاء على حسب رواية بوركهارت قد منعوا من حمل تموينات زائدة معهم من الدقيق والسمن والسمك المملح وغيرها من الأشياء التي كانوا ينقلونها معهم من مصر بأسعار رخيصة، مما يضطرهم إلى شراء ما ينقصهم من مواد غذائية من مكة، والتي تميزت أسعارها في تلك الفترة بالغلو، مما انعكس على ظهور الهزال وأمراض سوء التغذية على الحجاج، خاصة مع طول الفترة التي يقضيها الحجاج في تلك الرحلة والمجهود الجسماني الذي تتطلبه<sup>(٦)</sup>. وذلك على عكس حجج قوافل الحج البري الذين كانت لديهم فرصة حمل ما يحتاجونه من مؤن، بل والزيادة عليها رغبة في بيعها على الحجاج في مكة طمعا في هامش ربح يحصلونه، وإن تميزت الرحلات البرية بطول المدة وشدة العناء<sup>(٧)</sup>.

(٤) بوركهارت: ترحال في الجزيرة العربية، ج ١، ص ٣-١١.

(٥) كان إعلان بوركهارت أنه اعتنق الإسلام سبباً في السماح له بالدخول إلى الأماكن المقدسة، لأنه على ما يبدو لم يكن مسموحاً لغير المسلمين بالدخول إلى تلك الأماكن مثل عرفات ومي والمزدلفة، لكن بوركهارت دخلها ورصد مناسك وشعائر الحج بها ووصف تلك الأماكن، بدليل أن رحالته مثل داوتي عندما عزم على القيام برحلته إلى الجزيرة العربية اشترط عليه عدم الدخول إلى مكة والمدينة لأنه غير مسلم. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، طبعة منقحة عن طبعة بولاق ١٩٩٨، ج ٣، ص ٦٠٢؛ تشارلز داوتي: رحلة في الجزيرة العربية، ترجمة صبري محمد حسن، مراجعة جمال زكريا قاسم، المركز القومي للترجمة، ط ٢٠٠٩، ج ١، ص ١٤.

(٦) بوركهارت: الرحلة، ج ٢، ص ١٧.

(٧) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٨.

وسمة جملة ذكرها بوركهارت في رحلته لها مدلول صحي قوي لا يمكن التغافل عنه في وتيرة الحديث عن الأحوال الصحية للحجاج في موسم الحج، وهي قوله "..... إن الزنوج أو التكارنة" (٨)..... هم الوحيدون من الحجاج الفقراء الذين يصلون إلى الحجاز ..... (٩) وهذا يعطي مؤشراً هاماً حول الوضعية الصحية لكثير من الحجاج خاصة الفقراء منهم، الذين يموتون في أثناء الرحلة، لعدم قدرتهم الصحية على تحمل مشاق الرحلة من ناحية، كما تعطي انطباعاً بعدم توفر الرعاية الطبية المطلوبة في محطات الحج وفي ركب الحجيج من ناحية أخرى (١٠).

و لم ترد بكتاب بوركهارت "تحراول في الجزيرة العربية" أي إشارة عما إذا كانت تلك الرحلات سواء أكانت البرية منها أو البحرية، يرافقتها أطباء أم لا (١١). مما يعطي دليلاً على عدم وجود مثل أولئك الأطباء، بدليل إخباره لنا عن موت كثير من الحجاج الفقراء المصاحبين لقافلة الحج الدمشقي نتيجة الإجهاد والتعب (١٢).

#### ثالثاً: انتشار بعض الممارسات غير الصحية أثناء فترة الحج.

رصد لنا بوركهارت وجود بعض الممارسات غير الصحية في فترة الحج والتي منها انتشار الشراب المسكر والذي يطلق عليه اسم "البوظة" (١٣) وكان من الأشياء التي اعتاد الحجاج على شربها في مكة والمدينة، ومن يقوم بصناعتها هم الزنوج أو التكارنة الفقراء الذين وصلوا مكة في موسم الحج أو قبله بقليل، بحثاً عن عمل يمثل مصدر ربح لهم، وتكون صناعة هذا الشراب هو ذلك المصدر، بما قد يحمله من ملوثات نظراً لعدم الاكتراث بالنظافة العامة في التصنيع والتداول أو غيره (١٤).

#### رابعاً: ضعف الترتيبات اللازمة في أثناء فترة الحج.

ظهر ذلك فيما أشار إليه بوركهارت من قلة المياه العذبة الصالحة للشرب، خاصة في مناطق مثل منى، والتي كانت تمثل مشكلة أمام الحجاج الفقراء، فقد كانت قرية المياه تملأ بحوالي ٤ قروش وهو مبلغ كبير بالنسبة للفقراء من الحجاج (١٥) ومما لاشك فيه أن قلة المياه مع المجهود الذي يبذل في الحج من العوامل المؤثرة سلباً على صحة الحجيج. كذلك مثل السباق بين محمل قوافل الحج خاصة المصرية والسورية، لكي تضع كلا منهما محملاً قبل الأخرى والذي كان يتكرر في أودية مكة وفي ساحة عرفات يوم الحج، وعدم تحديد مكان معين لكل منهما من قبل السلطات الموجودة في مكة وقتها، مشكلة في حد ذاته، أثرت ولو بشكل غير مباشر على الحالة الصحية للحجاج بما كان يسببه من حوادث دامية قد تؤدي إلى وفاة مئات الناس (١٦).

(٨) التكارنة: هو اسم لشعب كبير من القبائل الحامية، أسس مملكة إفريقية قديمة جدا امتدت من غرب السودان إلى سواحل المحيط الأطلسي ضمت تلك المملكة أراضي المناطق المعروفة اليوم سياسياً بالسنگال ومالي ونيجيريا والنيجر وتشاد وصولاً إلى حدود دار فور في السودان ويذهب بعض المؤرخين، خاصة العرب، إلى إن اسم تكرر هو اسم لمدينة على نهر السنغال الحالي وكانت عاصمة مملكة التكرور والتي إليها ينسب التكارنة وأحياناً ما يقال الدكارنة، و تاريخ دخول الإسلام لأراضيها حوالي عام ١٠٣٠م أي مع بداية القرن الخامس الهجري. لكن بعض الباحثين يرون إن تلك المملكة نشأت قبل هذا التاريخ بعدة قرون حيث كانت في أوج قوتها حين دخلها الإسلام في عهد الملك القوي وإردياي الذي توفي عام ١٠٤٠م. وربما دخل الإسلام لمملكة التكرور قبل هذا التاريخ بعدة سنوات بإسلام أفراد وجماعات صغيرة على يد التجار المسلمين القادمين من شمال إفريقيا والمغرب من البربر. محمد ناصر العبودي: سطور من المنظور والمتأور عن بلاد التكرور، مكتبة الملك فهد الرياض، ط١٩٩٩، ص ٢٢-٣٥.

(٩) بوركهارت: مرجع سابق، ج ٢، ص ١٨٠، ١٩.

(١٠) ويبدو أن هذا الوضع كان مستمراً لعدة عقود متتالية وأنه لا توجد سمة تغيير منذ القرن الثاني عشر الهجري / ١٨ م حتى القرن الثالث عشر الهجري / ١٩ م فذلك ما تمت الإشارة إليه في الرحلة الهندية إلى الحجاز والتي تمت سنة ١٧٨٩م / ١٢٠١ هـ، وفي ذلك يقول رفيع الدين المراد أبادي ".....عاد من تبقى منا إلى السفينة يوم ٢٧ رجب ..... وفي ذلك إشارة إلى موت الكثير من الحجاج أثناء رحلة الحج وحتى قبل الوصول إلى مكة المراد أبادي: الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ص ٥١.

(١١) يشير داوتي في رحلته التي قام بها إلى الجزيرة العربية في غضون عام ١٨٧٨م / ١٢٨٩هـ، بأنه كان الطبيب الوحيد الذي رافق قافلة الحج الدمشقي من دمشق حتى مدائن صالح وأن الحجاج المصاحبين له أخبروه أنه قبل ثلاث أعوام تفشى مرض الكوليرا في قافلة الحج الدمشقي ومات الكثيرون من الحجاج ولم يكن يرافقه أطباء يخرجون معها من دمشق. داوتي: رحلة في الجزيرة، ج ٢، ص ١٩٨. هذا وتعتبر الفترة التي زار فيها داوتي الجزيرة أكثر تقدماً عن تلك التي نحن بصددتها أثناء رحلة بوركهارت.

(١٢) بوركهارت: الرحلة، ج ٢، ص ٣٤.

(١٣) ذكر بوركهارت ذلك الشراب باسم المسكر نسبة إلى السكر الذي يدخل في تكوينه بشكل رئيسي مع الدقيق والمياه وبعض الروائح العطرية، وكان من يقوم بصناعته يسمى البوظي وهو من الأشربة التي كانت منتشرة في مصر والسودان بشكل خاص. أوليا جلي: سياحنتامة، ترجمة محمد عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، مراجعة أحمد فؤاد متولي، دار الكتب القومية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٣٥.

(١٤) بوركهارت: الرحلة، ج ٢، ص ٢٤.

(١٥) بوركهارت: مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٥.

(١٦) بوركهارت: مرجع سابق، ج ٢، ص ٤١.

#### خامسا : سلوكيات الحجيج المؤثرة سلبا على الصحة العامة.

من خلال ما رصده بوركهارت في أثناء وجوده في مكة وما جاورها من أماكن في أيام الحج، ظهرت بعض السلوكيات غير الصحية أو المؤثرة سلبا على الصحة العامة للحجاج في موسم الحج، والتي كان يقوم به الحجاج المتممون لمناسك الحج، من ذبح الأضاحي ثم ترك جلودها وأحشائها للتعضف، والتحلل في أنحاء وادي منى والشوارع المحيطة به حيث يتم الذبح<sup>(١٧)</sup> فتنبعث منها الروائح وينتشر عليها الذباب فيؤثر ذلك على صحة الناس، بما قد يسببه من انتشار للأمراض.

وكذلك بقايا الأضاحي التي كان يتركها أصحابها مترامية على أطراف الشوارع المؤدية بين مكة ومنى والتي وصفها "بوركهارت" بالجيء، حيث كانت سببا في انبعاث الروائح الكريهة وانتشار الذباب، كما أشار بوركهارت إلى العادات السيئة التي يقوم بها الحجاج من محاولات تقديد اللحم لاستخدامه أثناء رحلة العودة، والتي اعتبرها بوركهارت من الممارسات غير اللائقة بل وصفها "بالممارسات المخزية" ويصف من يقوم بها "بقلة التدنن"<sup>(١٨)</sup> لما تسببه من انتشار الحشرات وتعلقها بتلك اللحوم التي يتناولها الحجاج مرة أخرى، فتصبح مصدراً أكيداً للأمراض، في غياب لأقل مستوى من الثقافة الصحية. كما أشار بوركهارت إلى النفايات وجثث الإبل المتحللة التي تملأ الشوارع بمكة، بعد انتهاء موسم الحج، حتى أن رائحتها النفاذة تملأ المدينة وتجعل هواءها نفاذا خانقا، لدرجة أن سكان مكة لا يخرجون من بيوتهم إلا وهم مثلثون بشيلائهم، التي يلفونها حول أنوفهم من شدة الرائحة، هذا بالإضافة إلى ما كان يقوم به أهالي مكة من نزح لمجاري وطرشيات بيوتهم وإلقاء ما بها من مخلفات آدمية في حفر أمام منازلهم ويغطونها بالتراب والذي لا يمنع من انبعاث رائحتها<sup>(١٩)</sup>.

#### سادسا: ثقافة التطعيم ضد الأمراض.

لم تطالعنا كتابات بوركهارت بوجود ثقافة التطعيم ضد الأمراض التي قد تصيب الحجاج والتي قد تنتقل معهم من موطنهم الأصلي إلى باقي الحجاج في مكة أو العكس، خاصة مع الازدحام الشديد والاختلاط فيما بينهم، مما قد يزيد من احتمالية انتشار الأمراض<sup>(٢٠)</sup> ومما يؤكد ذلك ما أشار إليه بوركهارت من انتشار مرض الطاعون في جده بعد فترة وجيزة من انتهاء موسم الحج في مكة وانتقال الحجاج إلى جده في رحلة العودة إلى بلادهم، ومات فيه صديق بوركهارت نفسه<sup>(٢١)</sup>.

#### سابعا : وسائل العلاج والتداوي.

أما عن وسائل الطب والعلاجات فلم يشر إليها بوركهارت بشكل أو بآخر وكأنه هنا يصدق قول الرحالة "دومينجو بادري" الذي زار الجزيرة قبله بحوالي عقد كامل وقال: "أن صنعة الطب كاسدة عند العرب نظرا لاعتماد أهلها بشكل كبير على الطب الشعبي الموروث وأحيانا السحر والشعوذة، وإن لم يخف ما سمعه من رجالات الجزيرة من تقديرهم لأصحاب الهمم والكفاءات خاصة في مهنة الطب، وأن مهنة الطب مريحة جدا في الدرعية"<sup>(٢٢)</sup>. ولكن وبشكل عام كانت أهم العلاجات المتبعة بين الحجاج هي استخدام ماء بئر زمزم (والذي وصفه بالمبارك) سواء في الشرب أو الاغتسال.<sup>(٢٣)</sup> كما يشير بوركهارت في حديثه عن "الذكارة أو الزنوج" بأنه إذا مرض أحد منهم فإن بني جلدته هم اللذين يقومون بمداواته، وكان ذلك يتم بما لديهم من موروثات شعبية في التطبيب<sup>(٢٤)</sup>. كذلك أشار بوركهارت إلى وفاة العديد من الحجاج

(١٧) بوركهارت: مرجع سابق، ج٢، ص٥٣.

(١٨) بوركهارت: مرجع سابق، ج٢، ص٥٥. ومع اتفاقنا مع بوركهارت فيما ذهب إليه عن أصحاب تلك العادات التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام التي تنادي بالحرص على النظافة والطهارة وأن يأمن كل إنسان جميع الناس بوائفه إلا أننا لا نتمك في أن عيون بوركهارت قد تكون قد أغفلت ولو بعض من جهود القائمين على تنظيم الحج، بشكل قد يخدم أهدافه أو على الأقل نظريته المسبقة للعرب والمسلمين. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، دار الساقى للطبع والنشر، ٢٠١٣، ج١، ص٦٧.

(١٩) بوركهارت: مرجع سابق، ج٢، ص٦١.

(٢٠) يشير داوتي في رحلته إلى سبب عدم انتشار ثقافة التطعيم عند العرب بشكل عام وعند بدو الجزيرة العربية بشكل خاص قبل تاريخ رحلة بوركهارت بحوالي ٦٠ عام، بأن ذلك يرجع إلى عدم استعداد الناس لدفع أي مبالغ مالية لقاء تلك التطعيمات أو تلك الأضال من ناحية وإلى انتشار ظاهرة التوكل على الله بينهم التي لا تجعلهم يبحثون عن الأسباب في العلاجات. داوتي: رحلته، ج١، ص١٩٧.

(٢١) داوتي: مرجع سابق، ج٢، ص٥٨.

(٢٢) عبد العزيز عبد الغني: روايات غربية، ص٢٤٤-٢٤٣.

(٢٣) سبق وأشار دومينجو في كتابته عن بئر زمزم إلى مدى صحة ماءها واحتفاظها دائما بحرارتها مهما تغيرت درجة الحرارة في المناطق المجاورة لها وأنها تسبغ على شارها بركة من السماء وهي في ذلك تختلف عن بقية آبار مكة. عبد الحفيظ حمان: الحياة العامة في بعض مدن الحجاز في بداية القرن التاسع عشر من خلال رحلة دومينجو بادري، مجلة البحوث، دار الملك عبد العزيز، العدد ١٤٢٢، ٢٠٢٢، ص٢٢.

(٢٤) بوركهارت: رحلته، ج٢، ص٤٥.

بالأراضي الحجازية المقدسة نتيجة لما أصابهم من الإعياء بعد هذه الرحلة الشاقة أو إصابتهم بالبرد نتيجة لارتدائهم ملابس الإحرام<sup>(٢٥)</sup>. خاصة وعلى ما يبدو من وصف بوركهارت لرحلته أنها كانت في شتاء ١٨١٤م/١٢٢٩هـ، مما يعطي دلالة عن عدم توافر الرعاية الصحية لأولئك الحجاج في تلك الفترة.

### النتائج:

من أهم النتائج التي يمكن الخروج بها بعد إتمام هذه الورقة هي:

- ١- أن الحالة الصحية في موسم الحج يمكن تتبعها بداية من خروج ركب الحجيج من مختلف بقاع الأرض، وتظهر دلالتها واضحة في أعداد من يصل من الحجاج إلى مكة، وكذلك الحالة الصحية التي يصلون عليها والتي تدل على ضعف إن لم يكن عدم توفر الرعاية الصحية في أثناء تلك الرحلة.
- ٢- ضعف الثقافة الصحية للحجيج كانت من السمات التي ظهرت في موسم الحج الذي شهده بوركهارت عام ١٨١٤/١٢٢٩هـ.
- ٣- كان إهمال المسلمين لنظافة تلك الأماكن المقدسة وعدم الاكتراث بأفعالهم وما يخلفونه ورائهم من نفايات من أكثر الممارسات التي استاء منها وأشار إليها بوركهارت.
- ٤- لم تكن ثقافة التطعيم ضد الأمراض من الممارسات المعهودة في مكة أو حتى في بلاد المسلمين التي تخرج منها ركب الحج.
- ٥- أن صنعة الطب كانت صنعة كاسدة عند العرب وكان اعتمادهم على العلاجات الشعبية و التداوي بماء زمزم هي الأكثر انتشاراً.

### الخلاصة:

الصورة التي ظهرت في رحلة بوركهارت للأحوال الصحية في موسم الحج في تلك الفترة، أظهرت ما تنعم به الأماكن الحجية المشرفة من عناية في وقتنا الحاضر والتي تظهر ملاحظتها في الاهتمام بنظافتها والقيام على رعاية زائريها صحياً وأمنياً، وما تحمله في ذلك من رسالة وصورة عن القائمين على رعايتها، إلى العالم أجمع بقدرتهم وأهليتهم لهذا الشرف العظيم، كما نهبت إلى دور المسلمين إلى ضرورة الحفاظ على مقدساتهم الدينية التي أنعم الله علينا بوجودها في منطقتنا العربية.

### التوصيات:

- العمل على زيادة التوعية الصحية للقادمين من الحجيج إلى الأراضي المقدسة بالتنسيق والتعاون مع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في بلادهم، وإرسال الرسائل النصية التوعوية عبر وسائل التواصل الاجتماعي والتي تهدف إلى حثهم على الحفاظ على نظافة أماكن الشعائر الدينية.
- زيادة تفعيل الدور الرقابي للسلطات في محاربة كل مخالفات أنظمة الصحة والسلامة، خاصة في المجال والفنادق حيث يتعامل الحجيج.

### المراجع:

- المراد أبادي: الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤ م.
- أوليا جلي: سياحتنا، ترجمة محمد عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، مراجعة أحمد فؤاد متولي، دار الكتب القومية، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
- تشارلز داوتي: رحلة في الجزيرة العربية، ترجمة صبري محمد حسن، مراجعة جمال زكريا قاسم، المركز القومي للترجمة، ط٢ ٢٠٠٩ م.
- جون بوركهارت: ترحال في الجزيرة، ترجمة وتقديم صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٧ م.
- عبد الحفيظ حمان: الحياة العامة في بعض مدن الحجاز في بداية القرن التاسع عشر من خلال رحلة دومينجو باديا، مجلة البحوث، دارة الملك عبد العزيز، العدد ٢، ١٤٢٢هـ.
- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، طبعة منقحة عن طبعة بولاق ١٩٩٨ م.
- عبد العزيز الشبل: الأوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال كتابات الرحالة تشارلز داوتي، مجلة الدرعية، العدد ١٤، ٢٠٠١ م.
- عبد العزيز عبد الغني: روايات غربية عن رحلات في الجزيرة العربية، دار الساقى، ط ٢٠١٣ م.
- محمد ناصر العبودي: سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور، مكتبة الملك فهد الرياض، ط ١٩٩٩ م.

(٢٥) داوتي: مرجع السابق، ج٢، ص ٦٣.